أهمية القدوة
في حياة الدعوة والداعية

إعداد

دكتور / محمد بن سليمان البراك

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

ملخص البحث:

تضمن هذا البحث مقدمة وخمسة مباحث:

المبحث الأول وفيه عن مكانة العلماء في الأمة ومنزلتهم الرفيعة التي أنزلهم الله إياها وبينتها السنة المطهرة وعرفها لهم أهل الفضل والعلم.

وفي المبحث الثاني الطريقة المثلى في التعامل مع العلماء كي تتم الفائدة من علمهم وينتفع الناس منهم.

وفي المبحث الثالث حاجة العباد إلى العلماء وعدم استغنائهم عنهم بحال من الأحوال، لمعرفة أحكام الله تعالى في العقائد والعبادات والمعاملات ، التي هم أعلم الناس بها ، وأولى الناس بتطبيقها والعمل بها.

وفي المبحث الرابع أبرز التهم التي يرمى بها العلماء ويتخذها المنفرون منهم وسيلة لصد الناس عنهم والحيلولة بينهم وبين الاستفادة منهم واعتبار أقوالهم .

وفي المبحث الخامس فيه ضرورة حماية أعراض العلماء ليبقوا موضع القدوة والأسوة.

ثم الخاتمة التي فيها خلاصة البحث وأهم النتائج والتوصيات.

الكلمات الدالة:

أهمية–القدوة–حياة–الداعية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وآله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد بين الله في كتابه أن الدعوة إلى دينه لا تكون إلا على بصيرة، وأن أتباع نبيه ﷺ هم الذين يستنون بسنته ويسلكون طريقته في الدعوة فقال تعالى: **{قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}**([1])

فالداعي إلى الله تعالى لا يمكن أن يدعو إلى شيء من أمور الدين إلا وقد علم ما يدعو إليه لأن العلم سابق القول والعمل، قال البخاري: باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى:**{ فاعلم أنه لا إله إلا الله}**([2]) فبدأ بالعلم([3]).

قال ابن حجر: وقوله: (فبدأ بالعلم) أي حيث قال: { فاعلم أنه لا إله إلا الله} ثم قال: {واستغفر لذنبك}([4]) والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو متناول لأمته([5]).

والدعاة إلى الله تعالى علماء يعملون بعلمهم ويدعون إلى الله على بصيرة، وهم قدوة للناس يصدرون عن أقوالهم ويسترشدون بآرائهم وينهلون من علمهم ويرجعون إليهم في الفتوى وفيما أشكل عليهم.

وإذا عرفنا مكانة العلماء في الأمة وحاجة الناس إليهم وضرورة بقائهم دائما موضع القدوة الحسنة التي يتأسى بها، عرفنا ما يترتب على كون أعراضهم سهلة

([1]) سورة يوسف (١٠٨)

([2]) سورة محمد (١٩)

([3]) فتح الباري (١٩٢/١)

([4])سورة محمد (١٩)

([5])المرجع السابق (١٩٣/١)

التناول من العامة والخاصة، وانتقاص قدرهم واتهامهم بشتى التهم وما ينتج عن ذلك من تحطيم القدوة العلمية وانصراف الناس عن العلماء والدعاة وزهدهم بما عندهم من علم، ثم لا تسل بعد ذلك عن هلكة الناس إن هم فقدوا من يدلهم ويوجههم إلى ما فيه فلاحهم في الدنيا والآخرة.

وقد حرصت على الكتابة في هذا الموضوع الذي أرى الحاجة تمس إلى الكتابة فيه خصوصا في هذا الوقت الذي تجرأ فيه الكثير على الخوض في أعراض العلماء والافتراء عليهم وقد تضمن هذا البحث مقدمة وخمسة مباحث:

المبحث الأول تحدثت فيه عن مكانة العلماء في الأمة ومنزلتهم الرفيعة التي أنزلهم الله إياها وبينتها السنة المطهرة وعرفها لهم أهل الفضل والعلم.

وفي المبحث الثاني بينت الطريقة المثلى في التعامل مع العلماء كي تتم الفائدة من علمهم وينتفع الناس منهم.

وفي المبحث الثالث بينت حاجة العباد إلى العلماء وعدم استغنائهم عنهم بحال من الأحوال، لمعرفة أحكام الله تعالى في العقائد والعبادات والمعاملات ، التي هم أعلم الناس بها ، وأولى الناس بتطبيقها والعمل بها.

وفي المبحث الرابع تحدثت عن أبرز التهم التي يرمى بها العلماء ويتخذها المنفرون منهم وسيلة لصد الناس عنهم والحيلولة بينهم وبين الاستفادة منهم واعتبار أقوالهم .

وفي المبحث الخامس بينت فيه ضرورة حماية أعراض العلماء ليبقوا موضع القدوة والأسوة.

ثم الخاتمة التي بينت فيها خلاصة البحث وأهم النتائج والتوصيات.

وهي محاولة تحتاج إلى أن تعقبها محاولات، وجهد مقل لعله يفتح الباب إلى دراسات أكثر شمولا واستقصاء.

و أسأل الله تعالى أن ينفع بها وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه

المبحث الأول: مكانة العلماء

جعل الله عباده درجات ورفع بعضهم فوق بعض وجعل العلماء من الذين تبوؤا الدرجات العالية وجاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مشيدة بفضلهم معلية من شأنهم، مبينة ما لهم من المكانة العالية والمنزلة الرفيعة التي لم ينالوها بحسب ولا نسب وإنما بإرث النبوة الذي اختصهم الله به من بين خلقه فتفضل عليهم فعلمهم الكتاب والحكمة وفقههم في الدين وعلمهم التأويل وفضلهم على سائر المؤمنين ([1]).

الوجوه الدالة على فضل العلماء وعلو منزلتهم:

ولما كانت الوجوه الدالة على فضل العلماء وما لهم من المكانة كثيرة جدا يصعب استقصاؤها أو الإحاطة بها، فحسبنا ذكر بعضها، فما لا يدرك كله لا يترك جله.

وهذه بعض الوجوه الدالة على ما لأهل العلم من المكانة، تؤيدها أدلة الكتاب والسنة التي لا يحتاج معها إلى غيرها.

الوجه الأول:

ما دل عليه قول الله تعالى: **{شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم}**([2]) إن الله سبحانه وتعالى شهد وكفى به شهيدا أنه هو المتفرد بالألوهية لا إله غيره ولا معبود سواه، ثم قرن شهادة ملائكته وشهادة أولي العلم بشهادته، وفي ذلك شرف لأولي العلم أيما شرف ومنقبة لا تدانيها أي منقبة، وقد استدل بهذه الآية كثير من أهل العلم على شرف العلم ومكانة العلماء، يقول القرطبي في تفسيره: في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء، وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ : **{وقل رب زدني علما}**([3]) فلو

([1])انظر أخلاق العلماء ص (٣٣) للإمام أبي بكر الآجري، دار الثقافة ط (٢) ١٤٠٤هـ

([2]) سورة آل عمران (١٨)

([3]) سورة طه (١١٤)

كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمره أن يستزيده من العلم([1]).

أما الإمام ابن القيم فقد عقد فصلا في كتابه القيم مفتاح دار السعادة، بدأه بالاستشهاد بهذه الآية ثم أورد أكثر من مائة وخمسين وجها كلها دالة على فضل العلم وأهله معتمدا في ذلك على إشهاد الله تعالى أولي العلم من بني البشر خاصة دون غيرهم على أجَلِّ مشهود وهو توحيده، وأنه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وهذا يتضمن تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول.

كما أنه استشهدهم على أجَلِّ مشهود وأعظمه وأكبره، وهو شهادة أن لا إله إلا هو، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وسادتهم([2])

الوجه الثاني:

أن العلماء من أولي الأمر الذين تجب لهم الطاعة: ويرى كثير من أهل العلم أن قول الله تعالى **{يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}**([3]) فيه أمر بطاعة العلماء لأنهم المعنيون بقوله تعالى **{وأولي الأمر منكم}** وذلك مروي عن ابن عباس وغيره من السلف، فقال ابن عباس في قوله تعالى **{وأولي الأمر منكم}**: يعني أهل الفقه والدين.

وعن مجاهد قال: أهل العلم.

وعن عطاء قال: أولي العلم والفقه.

وقال الحسن: هم العلماء([4]).

وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية يرى أنه يدخل في (أولي الأمر) العلماء والأمراء فيقول: وأولوا الأمر أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولوا العلم صنفين: العلماء

([1]) الجامع لأحكام القرآن، المجلد(٢) جزء(٤) ص (٢٧)

([2]) انظر مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة (٢١٩٢٢١/١) للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر قيم الجوزية، دار ابن عفان ط (١) ١٤١٦هـ

([3]) سورة النساء (٥٩)

([4]) تفسير الطبري (١٥٢/٤)

والأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس(١).

وفي موضع آخر يقول: وقد كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس في دينهم ودنياهم، ثم بعد ذلك تفرقت الأمور فصار أمراء الحرب يسوسون الناس في أمر الدنيا والدين الظاهر، وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع إليهم من العلم والدين.

هؤلاء أولوا الأمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التي هم أولوا أمرها(٢).

ويرى الإمام ابن القيم أن طاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء لأن الأمراء لا يطاعون إلا إذا أمروا بمقتضى العلم الذي يحتاجون في معرفته إلى العلماء فيقول رحمه الله: والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء(٣).

الوجه الثالث:

أن الله تعالى أمر من ليس عنده علم بسؤالهم والرجوع إليهم فقال تعالى: **{وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}**(٤).

ومعلوم أن هذا الأمر بسؤال أهل العلم مرده ما أودعه الله في صدورهم من العلم الذي يعرف به سائلهم أمر دينه فيميز بين الحلال والحرام.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: وعموم هذه الآية فيه مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأنه بذلك يخرج الجاهل من التبعة فدل على أن الله تعالى ائتمنهم على وحيه وتنزيله،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٧٠/٢٨)

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٥٥١/١١)

(٣) إعلام الموقعين (١٠/١)

(٤) سورة النحل (٤٣)

وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال([1]).

وبين الإمام الشاطبي كيف أن فتاوى العلماء بالنسبة للعامي كالأدلة الشرعية، لأن العامي لو نظر في الأدلة لم يخرج منها بشيء، فيقول: فتاوى المجتهدين بالنسبة إلى العوام كالأدلة الشرعية بالنسبة إلى المجتهدين، والدليل عليه أن وجود الأدلة بالنسبة إلى المقلدين وعدمها سواء، إذا كانوا لا يستفيدون منها شيئا، فليس النظر في الأدلة والاستنباط من شأنهم، ولا يجوز ذلك لهم البتة وقد قال تعالى: **{ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}**([2]) والمقلد غير عالم، فلا يصح له إلا سؤال أهل الذكر، وإليهم مرجعه في أحكام الدين على الإطلاق فهم إذا القائمون له مقام الشرع، وأقوالهم قائمة مقام الشارع([3]).

الوجه الرابع:

أن الله تعالى نفى التسوية بين أهل العلم وبين غيرهم فقال سبحانه **{قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب}**([4]).

فلا يستوي من مدحه الله تعالى وأثنى عليه وأمر بالرجوع إلى قوله كمن هو بمنزلة الأعمى فقال تعالى: **{أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب}**([5]).

الوجه الخامس: أن العلماء هم ورثة الأنبياء، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة**

([1]) تيسير الكريم الرحمن (٢٠٦/٤)

([2]) سورة النحل (٤٣)

([3]) الموافقات (٢١٥/٤-٢١٦)

([4]) سورة الزمر (٩)

([5]) سورة الرعد (١٩)

البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»([1]).

وأي فضيلة أعظم من اختصاص العلماء بإرث النبوة دون غيرهم، لا شك أن هذا الاختصاص مشعر بقربهم من الأنبياء، لأنه معروف أن ميراث الإنسان من غيره يتفاوت قدره بحسب قربه من المورث.

قال ابن القيم: قوله «إن العلماء ورثة الأنبياء » هذا من أعظم المناقب لأهل العلم، فإن الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كل مورث ينتقل ميراثه إلى ورثته، إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم([2]).

الوجه السادس:

أن العلم يرفع أهله في الدنيا والآخرة ويبقى ذكرهم بعد موتهم ولا يتحقق مثله لصاحب المال والملك ولا غيرهم، فالعلم يزيد الشريف شرفا، ويرفع العبد المملوك حتى يحتاج إليه الملوك والأشراف، فكم من عبد مملوك رفعه الله بالعلم إلى أعلى الدرجات حتى صار أشراف الناس يترددون إليه ويظهرون له الإجلال والتقدير، وفي صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحارث([3]) لقي عمر بعسفان وكان عمر يستعمله على مكة فقال: من استعملت على أهل الوادي فقال ابن أبزى([4]) قال:

([1]) رواه أبو داود، واللفظ له،كتاب العلم،باب الحث على طلب العلم، رقم الحديث (٣٦٤١) والترمذي،كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم الحديث (٢٦٨٢) وابن ماجة، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم الحديث(٢٢٣) والإمام أحمد (١٩٦/٥)

([2]) مفتاح دار السعادة (٢٦١/١)

([3]) نافع بن عبد الحارث بن عمير الخزاعي، اختلف في صحبته، أسلم يوم الفتح فأقام بمكة ولم يهاجر، أمره عمر على مكة، اشترى لعمر بن الخطاب من صفوان بن أمية دار السجن بمكة. انظر الإصابة (٤٠٨/٦) والأعلام للزركلي (٥/٨)

([4]) عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي، مولى نافع بن الحارث، اختلف في صحبته، حدث عن أبي بكر وعمر وعلي وغيرهم، حدث عنه ابناه عبد الله وسعيد، والشعبي وعلقمة بن مرثد وأبو إسحاق

ومن ابن أبزى قال مولى من موالينا قال: فاستخلفت عليهم مولى قال إنه قارئ لكتاب الله عز وجل وإنه عالم بالفرائض قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال:« **إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين**»([1]).

وقال إبراهيم الحربي([2]): كان عطاء بن أبي رباح عبدا أسودا لامرأة من أهل مكة وكان أنفه كأنه باقلاء، قال: وجاء سليمان بن عبد الملك([3]) أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلي فلما صلى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: قوما فقاما، فقال: يا بني لا تنيا في طلب العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود([4]).

وقال سفيان الثوري: (من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم).

وقال النضر بن شميل([5]): من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم،

السبيعي وآخرون، استعمله علي على خراسان، ذكره ابن حبان في ثقات التابعين، قال عنه عمر رضي الله عنه: ابن ابزى ممن رفعه الله بالقرآن، توفي سنة نيف وسبعين. انظر سير أعلام النبلاء (٢٠١٢٠٣/٣) وتهذيب التهذيب (٣٣٥/٣)

([1]) رواه مسلم، واللفظ له،كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم الحديث (٨١٧) وابن ماجة،المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، رقم الحديث(٢١٨) والإمام أحمد (٣٥/١) والدارمي، باب إن الله يرفع بهذا القرآن أقواما ويضع آخرين، رقم الحديث(٣٣٦٥)

([2]) إبراهيم بن إسحاق بن بشير البغدادي الحربي، أبو إسحاق، أحد الأئمة في الفقه والحديث من أعلام المحدثين، أصله من مرو واشتهر وتوفي في بغداد، كان حافظا للحديث عارفا بالفقه بصيرا بالأحكام قيما بالأدب، توفي سنة ٢٨٥هـ انظر سير أعلام النبلاء (٣٥٦/١٣-٣٥٧و٣٦٤) و البداية والنهاية (٩٠/١١-٩١) والأعلام للزركلي (٣٢/١)

([3]) سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي، أبو أيوب، ولد بالمدينة، ونشأ بالشام، ولي الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد، جهز جيشا كبيرا بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك فحاصر القسطنطينية، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانت في أيدي الترك، توفي بالشام سنة ٩٩هـ. انظر البداية والنهاية (٩/ ٢٠١و٢٠٣و٢٠٧) والأعلام للزركلي (١٣٠/٣)

([4]) مفتاح دار السعادة (٥٠١/١-٥٠٢)

([5]) النضر بن شميل بن خرشة، الإمام العلامة أبو الحسن المازني البصري النحوي، ولد بمرو، ثم انتقل مع أبيه إلى البصرة ثم عاد إلى مرو فولي قضاءها، توفي سنة ٢٠٤هـ انظر سير أعلام النبلاء (٣٢٨٣٣١/٩) و (البداية والنهاية ٢٧٨/١٠) والأعلام للزركلي (٣٣/٨)

وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عباده.

وقال سفيان بن عيينة([1]): أرفع الناس منزلة عند الله من كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء.

وقال سهل التستري([2]): من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء، يجيء الرجل فيقول: يا فلان إيش تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: طلقت امرأته، ويجيء آخر فيقول: حلفت بكذا وكذا، فيقول: ليس يحنث بهذا القول، وليس هذا إلا لنبي أو عالم، فاعرفوا لهم ذلك([3]).

وما تقدم من الوجوه الدالة على فضل العلم وأهله ومكانة العلماء التي أنزلهم الله إياها، مجرد إشارات عابرة ولمحات يسيرة لا يتسع المقام للزيادة عليها، وفيها غنية للبيب الفطن.

([1]) الإمام سفيان بن عيينة بن أبي عمران، ميمون مولى ابن مزاحم،ولد بالكوفة سنة١٠٧هـ،سكن مكة (وقيل إن أباه عيينة هو المكي) طلب الحديث وهو غلام، لقي الكبار وحمل عنهم علما جما، قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان بن عيينة لذهب علم الحجاز، توفي سنة ١٩٨هـ، انظر سير أعلام النبلاء (٤٠٠٤٠٦/٨) وتهذيب التهذيب (٣٥٧٣٦٠/٢) والأعلام للزركلي (١٠٥/٣)

([2]) سهل بن عبد الله التستري، الزاهد له كلمات نافعة ومواعظ حسنة، ودعوة إلى السنة والتمسك بها وإلى كتابة الحديث ولد سنة ٢٠٠هـ وتوفي سنة ٢٨٣هـ، انظر تسير أعلام النبلاء (٣٣٠٣٣٣/١٣) البداية والنهاية (٨٥/١١) والأعلام للزركلي (١٤٣/٣)

([3]) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٠٤-٥٠٥)

المبحث الثاني: الطريقة المثلى في التعامل مع العلماء:

إن أولى الناس بالاحترام والتقدير من رفع الله قدره وأعلى شأنه فكان له نصيب وافر من علم الكتاب والسنة فاستحق لذلك التكريم والإجلال، قال تعالى: **{يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات }**(١).

وفي الحديث «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين**»(٢).

ولما كان للعلماء المكانة العالية التي أنزلهم الله إياها، فإن معاملتهم ليست كمعاملة غيرهم من سائر الناس، روى الإمام أحمد من حديث عبادة بن الصامت(٣) أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه**»(٤).

وروى أبو داود عن أبي موسى عن النبي ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**»(٥).

وقال طاووس: من السنة أن يوقر أربعة: العالم، وذو الشيبة،والسلطان والوالد(٦).

وقد كان احترام العلماء والتأدب معهم شأن سلفنا الصالح، وأقوالهم وأفعالهم شاهد

---

(١) سورة المجادلة (١١)

(٢) رواه مسلم، سبق تخريجه (٨١٧)

(٣) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، أحد النقباء بالعقبة شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، شهد فتح مصر، أول من ولي قضاء فلسطين، وهو ممن جمع القرآن في عهد النبي ﷺ مات سنة٣٤هـ وقيل ٤٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٢/٥-١١) والإصابة (٣/٦٢٤-٦٢٦) والأعلام للزركلي (٣/٢٥٨)

(٤) رواه الإمام أحمد (٥/٣٢٣)

(٥) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في إنزال الناس منازلهم، رقم الحديث (٤٨٤٣)

(٦) شرح السنة للبغوي (١٣/٤١)

على ذلك، وأولى الناس بهذا الأدب أصحاب النبي ﷺ الذين كان لهم منه أوفر الحظ والنصيب، فهذا حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ منعه إجلاله وهيبته لعمر ﷺ أن يسأله عن مسالة طالما تشوق لمعرفة جوابها فلبث سنة كاملة يتحين الفرصة المناسبة لطرح مسألته على عمر حتى واتته هذه الفرصة، فقد جاء في الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: كنت أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ فمكثت سنة فلم أجد له موضعا حتى خرجت معه حاجا فلما كنا بظهران ذهب عمر لحاجته فقال أدركني بالوضوء فأدركته بالإداوة فجعلت أسكب عليه الماء ورأيت موضعا فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان اللتان تظاهرتا، قال ابن عباس: فما أتممت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة»(١).

وانظر أيضا إلى أدب ابن عباس ﷺ واحترامه لزيد بن ثابت حين أخذ بركابه، وذلك تقديرا له من أجل علمه مع أن ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ ومن آل بيته، فقد روي أن زيد بن ثابت صلى على جنازة ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال له زيد خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس هكذا يُفعل بالعلماء والكبراء(٢).

وتأمل كيف أخذ ابن عباس العلم عن الصحابة وكيف كان يتلطف بهم ويحاول ما استطاع تطييب خواطرهم مع ما له من المكانة في نفوسهم لشرف نسبه ومكانه من رسول الله ﷺ، ففي سنن الدارمي عن ابن عباس قال: لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار يا فلان هلم فلنسأل أصحاب النبي ﷺ فإنهم اليوم كثير فقال وا عجبا لك يا ابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى فترك ذلك وأقبلت على المسألة فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح على وجهي التراب

---

(١) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب التفسير، باب: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) رقم الحديث (٤٩١٥) ومسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، وقوله تعالى: وإن تظاهرا عليه، رقم الحديث (١٤٧٩)

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٢٨/١)

فيخرج فيراني فيقول يا ابن عم رسول الله ما جاء بك ألا أرسلت إلي فآتيك فأقول لا أنا أحق أن آتيك فأسأله عن الحديث قال فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس علي فقال كان هذا الفتى أعقل مني([1]).

وغضب عمر رضي ﷺ حين علم أن رجلا رد على ابن مسعود ردا من غير اللائق أن يُواجه به أهلُ العلم، فعن أبي وائل([2]) أن ابن مسعود رأى رجلا قد أسبل فقال: ارفع إزارك فقال: وأنت يا ابن مسعود ارفع إزارك فقال له عبد الله: إني لست مثلك إن بساقي حموشة([3]) وأنا أؤم الناس، فبلغ ذلك عمر فجعل يضرب الرجل ويقول: أترد على ابن مسعود([4]).

وقد كان التابعون يحجمون عن سؤال أصحاب النبي ﷺ هيبة لهم ومعرفة لقدرهم ومكانتهم، ففي صحيح البخاري عن شقيق قال: سمعت حذيفة قال: كنا جلوسا عند عمر ﷺ فقال: أيكم يحفظ قول: رسول الله ﷺ في الفتنة قلت أنا كما قاله: قال: إنك عليه أو عليها لجريء قلت فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي قال: ليس هذا أريد ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها بابا مغلقا قال: أيكسر أم يفتح قال: يكسر قال: إذا لا يغلق أبدا قلنا: أكان عمر يعلم الباب قال: نعم كما أن دون الغد الليلة إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأل حذيفة فأمرنا مسروقا فسأله فقال: الباب عمر([5]).

([1]) رواه الدارمي، المقدمة،بباب الرحلة في طلب العلم واحتمال العناء، رقم الحديث (٥٧٠)

([2]) شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل الكوفي، أدرك زمن النبي ولم يره، سكن الكوفة، وهو من أعلم أهل الكوفة بحديث ابن مسعود، مات سنة ٨٢هـ انظر سير أعلام النبلاء(١٦١١٦٦/٤) و تهذيب التهذيب(٥١٢/٢-٥١٣) والإصابة(٣٨٦/٣-٣٨٧)

([3]) قال ابن منظور الحَمَش والحُمُوشة والحَماشة: الدِّقة، وهو حَمَشُ الساقَيْن والذراعين، وحَمِيشُهما وأَحْمَشُهما: دقيقهما، وقد حَمُشَت ساقُه تَحْمُش حُمُوشة إذا دقت. لسان العرب (٢٨٨/٦) حرف الشين، فصل الحاء.

([4]) سير أعلام النبلاء (٤٩١/١-٤٩٢)

([5]) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، رقم الحديث (٥٢٥) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وإنه يأرز بين المسجدين

وقال مجاهد: قال: ابن عباس لسعيد بن جبير: حدث، قال: أحدث وأنت هاهنا؟ قال: أوليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد فإذا أصبتَ فذاك وإن أخطأت علمتك([1]).

وكذلك كان التابعون مع بعضهم، ففي سنن الدارمي عن الزهري([2]) قال: كنت آتي باب عروة([3]) فأجلس بالباب ولو شئت أن أدخل لدخلت ولكن إجلالا له([4]).

وكان يحيى بن سعيد([5]) يجالس ربيعة([6]) فإذا غاب ربيعة حدثهم يحيى أحسن الحديث، وكان كثير الحديث فإذا حضر ربيعة كف يحيى إجلالا لربيعة، وكلا منهما كان مبجلا لصاحبه([7]).

---

(١٤٤) والترمذي،كتاب الفتن، باب (٧١) رقم الحديث (٢٢٥٨) وابن ماجة،كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، رقم الحديث (٣٩٥٥) والإمام أحمد (٣٨٦/٥و٤٠١و٤٠٥)

([1]) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢١)

([2]) الإمام العلم حافظ زمانه محمد بن مسلم بن شهاب، أبو بكر الزهري، أحد أكابر الحفاظ والفقهاء، أول من دون الحديث، نزل الشام واستقر بها، توفي سنة ١٢٤هـ انظر سير أعلام النبلاء (٣٢٦/٥و٣٤٩) والبداية والنهاية (٣٧٢/٩-٣٧٦) والأعلام للزركلي (٩٧/٧)

([3]) عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبو عبد الله المدني، تابعي جليل، ثقة، كثير الحديث، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، انتقل إلى البصرة ثم إلى مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين، ثم عاد إلى المدينة فتوفي بها سنة ٩٤هـ وقيل ٩٣هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٤٢١/٤و٤٣٤) و البداية والنهاية (١١٩/٩-١٢١) و الأعلام للزركلي (٢٢٦/٤)

([4]) رواه الدارمي، المقدمة، باب الرحلة في طلب العلم، واحتمال العناء فيه (٥٦٩)

([5]) يحيى بن سعيد بن قيس، أبو سعيد الأنصاري الخزرجي، عالم المدينة في زمانه، من أهل الحديث، ولي القضاء في المدينة في زمن بني أمية أيام الوليد بن عبد الملك، رحل إلى العراق، وفي العصر العباسي ولي قضاء الحيرة، توفي سنة١٤٣هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٨و٤٧١و٤٧٦) والبداية والنهاية (٨٦/١٠) الأعلام للزركلي (٨/ ١٤٧)

([6]) الإمام المفتي، عالم المدينة ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فقيه مجتهد،كان بصيرا بالرأي فاشتهر بربيعة الرأي، من الأجواد، أدرك بعض الصحابة والتابعين، كان يحصى في مجلسه أربعون معتما، توفي سنة ١٣٦هـ انظر سير أعلام النبلاء (٨٩٩٢) وتهذيب التهذيب (١٥٣/٢-١٥٤) والأعلام للزركلي (١٧/٣)

([7]) سير أعلام النبلاء (٩٢/٦)

وما يروى عن أهل العلم من الوصية بالعلماء واحترامهم ومعرفة ما يجب لهم من التقدير، دال على اهتمامهم بهذا الخلق وعنايتهم به، لأنه السبيل إلى تحصيل العلم والتخلق بالأخلاق اللائقة بأهله، ومن ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته بالجواب، وأن لا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشين له سرا، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا تطلبن عثرته، وإذا زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته([1]).

وفي سنن الدارمي عن بعض أهل العلم: يا صاحب العلم جالس العلماء وزاحمهم واستمع منهم ودع منازعتهم، يا صاحب العلم عظم العلماء لعلمهم وصغر الجهال لجهلهم ولا تباعدهم وقربهم وعلمهم([2]).

ويروى عن علي أيضا أنه قال: من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة وعلى القوم عامة، وتجلس قدامه، ولا تشر بيديك ولا تغمز بعينيك ولا تقل قال فلان خلاف قولك ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه السؤال، فإنه بمنزلة النخلة المرطبة لا يزال يسقط عليك منها شيء([3]).

([1]) جامع بيان العلم (١٢٩/١) وإسناده إلى علي ضعيف جدا فيه صالح بن محمد الترمذي قال ابن حبان في (المجروحين) (٣٧٠/١) لا تحل كتابة حديثه ولا الرواية عنه، لم يكتب عنه أصحاب الحديث، وإنما وقعت روايته عند أهل الرأي ولكني ذكرته ليعرف فتجتنب روايته

([2]) سنن الدارمي،المقدمة، باب في إعظام العلم، رقم الحديث (٦٤٨)

([3]) جامع بيان العلم (١٤٦/١)

المبحث الثالث: حاجة العباد إلى العلم والعلماء

روى أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**([1]).

قال ابن القيم رحمه الله: وقوله «وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب، فإن القمر يضيء الآفاق ويمتد نوره إلى العالم، وهذا حال العالم، وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه، أو ما قرب منه، وهذه حال العابد الذي يضئ نور عبادته عليه دون غيره، وإن جاوز نور عبادته غيره فإنما يجاوزه غير بعيد كما يجاوز ضوء الكوكب له مجاوزة يسيرة([2]).

فالعبادة نفعها يعود على العابد دون سواه أما العالم فإن منفعة علمه تتعداه إلى غيره، وغيره محتاج إلى علمه.

وقال ابن عبد البر: ويقال: مثل العلماء مثل الماء حيث ما سقطوا نفعوا.

وقالوا: العلماء في الأرض كالنجوم في السماء والعلماء أعلام الإسلام والعالم كالسراج من مر به اقتبس منه ولولا العلم لكان الناس كالبهائم([3]).

وفي سنن الترمذي وابن ماجة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ **«فقيه**

([1]) رواه أبو داود واللفظ له، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم الحديث (٣٦٤١) والترمذي،كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم الحديث(٢٦٨٢) وابن ماجة في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم الحديث(٢٢٣) والإمام أحمد (١٩٦/٥)

([2]) مفتاح دار السعادة (٢٥٨/١)

([3]) جامع بيان العلم (٦٠/١)

واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»([1]).

ويفهم من هذا الحديث أن العلماء أعلم بمداخل الشيطان على الإنسان ومن ثم فإنهم حين ترد الشبهات والبدع يكون الملجئ بعد الله إليهم، فهم دعامة الإسلام والحائل بين الشيطان وبين تحقيق مآربه في إفساد الناس وصرفهم عن الحق، أما العُباد فغاية أمرهم أن يجاهدوا لتحصل لهم السلامة من الانحراف عن جادة الصواب، وهم مع ذلك على خطر من الوقوع في الانحراف حين ترد الشبهات لعدم علمهم بوجه الصواب.

وحاجة العباد إلى العلماء حاجة دائمة لا تنقضي لتعدد المسائل التي تحتاج إلى الرجوع إلى أهل العلم وكثرة النوازل التي لا يمكن التعامل معها على وجه صحيح إلا بالاهتداء بالعلماء.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: فما خراب العالم إلا بالجهل ولا عمارته إلا بالعلم، وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قل الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد، ومن لم يعرف هذا فهو ممن لم يجعل الله له نورا([2]).

ومن أعظم المصائب التي تحل بالأمة موت علمائها، فموت العالم مصيبة لاتجبر وثلمة لاتسد، وبذهابهم يذهب العلم كما ورد في الحديث الذي رواه الدارمي عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«خذوا العلم قبل أن يذهب قالوا وكيف يذهب العلم يا نبي الله وفينا كتاب الله قال فغضب لا يُغْضِبُهُ الله ثم قال ثكلتكم أمهاتكم أولم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل فلم يغنيا عنهم شيئا إن ذهاب العلم أن يذهب حملته إن ذهاب العلم أن يذهب حملته»**([3])

ومع أن الإنسان لا تقوم حياته إلا بالطعام والشراب والحاجة إليهما لا تنكر، إلا أن الإمام ابن القيم يوضح أن حاجة العباد إلى العلم أشد من حاجتهم إلى الطعام

([1]) رواه الترمذي،كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم الحديث(٢٦٨١) وابن ماجة، واللفظ له، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم الحديث (٢٢٢)

([2]) إعلام الموقعين (٢/٢٥٠)

([3])رواه الدارمي، المقدمة، باب في ذهاب العلم، رقم الحديث (٢٤٠) واللفظ له، ورواه ابن ماجة في المقدمة باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم) رقم الحديث (٢٢٨)

والشراب، فيقول: حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبا لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو الحكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب ([1]).

ولما كان ليس بإمكان كل أحد أن ينال حظا من العلم يعرف به الحق من الباطل، فإن السبيل إلى التمييز بين الحق وضده إنما يكون عن طريق العلماء الذين يُهتدى بهم ويُقتفى أثرهم، فالناس تبع لأقوالهم، والعامة عندهم كالطفل بين أبويه، يقول الإمام أحمد رحمه الله في مقدمة رده على الزنادقة: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين([2]).

خطر الوقيعة في العلماء:

تبين مما تقدم ما للعلماء من مكانة رفيعة، وأن الحاجة إليهم ماسة وأن ذلك مرده ماحوته صدورهم من العلم ومعرفة الأحكام الشرعية والتفقه في دين الله والتعمق في فهم النصوص الشرعية، التي جلوا للناس ما فيها من أحكام واستخرجوا ما فيها من غوامض، حيث إن معرفة الأحكام غير متيسر لكل إنسان، إلا عن طريق العلماء ولذلك فإن لهم حقوقا في مقدمتها، موالاتهم ومحبتهم والنصح لهم، والتورع من إطلاق الألسنة في أعراضهم والذب عنهم وإحسان الظن بهم.

([1]) مفتاح دار السعادة (٣٠١/١)

([2]) الرد على الجهمية والزنادقة مع مقدمة في علم الكلام والمذاهب الهدامة ص (٨٥) الإمام أحمد بن حنبل تحقيق وتعليق عبد الرحمن عميرة، دار اللواء للنشر، ط (٢) ١٤٠٢هـ

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فيجب على المسلمين بعد موالاة الله تعالى ورسولهﷺ موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم، يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم إذ كل أمة قبل مبعث نبينا محمد ﷺ فعلماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا([1]).

وتأتي خطورة الطعن في العلماء وانتقاص قدرهم من أن ذلك سيؤدي إلى صرف الناس عنهم وانعدام الثقة بهم وعدم رجوع الناس إليهم فيما أشكل عليهم، وفي ذلك فساد أيما فساد وتوهين لعرى الدين الذين هم الهداة إليه.

وحين يأتي التحذير من الوقيعة في أعراض العلماء فلا يظن أحد أن المقصود من ذلك الدفاع عن أشخاصهم وذواتهم المجردة، ولكن الخطورة تأتي من أن ذلك سيؤدي إلى إطراح أقوالهم والتشكيك في نزاهتهم ومن ثم تنصرف الأنظار عنهم ويزهد الناس فيما عندهم، حتى يكونوا وهم أحياء أشبه بالأموات الذين لا أثر لهم، والتشديد في المنع من الوقيعة فيهم وبيان الفرق بينهم وبين غيرهم يأتي من باب منع الوسائل المفضية إلى الغايات، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها كانت طرقها وأسبابها تابعة لها، معتبرة بها، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها، بحسب إفضائها إلى غاياتها وارتباطاتها، ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غاياتها، فوسيلة المقصود تابعة للمقصود وكلاهما مقصود لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل، فإذا حرم الرب تعالى شيئا، وله طرق ووسائل تفضي إليه فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقا لتحريمه، وتثبيتا له، ومنعا أن يقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك

([1]) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص(١٠)

نقضا للتحريم وإغراء للنفوس به، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء([1]).

ولما كان سب أصحاب النبي ﷺ مفضيا إلى الطعن في دين الإسلام الذي هم حملته ومبلغوه لمن بعدهم حُكم على من سبهم بالكفر والمروق من دين الإسلام، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وذلك أن أول هذه الأمة الذين قاموا بالدين تصديقا وعلما وعملا وتبليغا، فالطعن فيهم طعن في الدين موجب للإعراض عما بعث الله به النبيين، وهذا مقصود أول من أظهر بدعة التشيع فإنما كان قصده الصد عن سبيل الله وإبطال ما جاءت به الرسل عن الله([2]).

وقال أبو زرعة الرازي([3]): إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق وذلك أن الرسول حق والقرآن حق وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة([4]).

وكذلك اتفقت أقوال السلف حملة الشرع على اتهام من طعن في أحد من علماء التابعين ومن بعدهم من العلماء لأن القدح بهم يؤدي إلى القدح بما يحملونه من علم الشريعة.

ومما ذكره المفسرون عند تفسير قول الله تعالى: **{ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين}**([5]) ما رواه

([1]) إعلام الموقعين (١٧٥/٣)

([2]) منهاج السنة النبوية (١٨/١)

([3]) عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد المخزومي، أحد حفاظ الحديث من أهل الري، زار بغداد وحدث بها، جالس الإمام أحمد، توفي بالري سنة ٢٦٤هـ انظر سير أعلام النبلاء (٦٥/١٣و٦٧و٦٨و٧٧) وتهذيب التهذيب (٥٤/٤) والأعلام للزركلي (١٩٤/٤)

([4]) الإصابة في تمييز الصحابة (١١/١)

([5]) سورة التوبة (٦٥-٦٦)

ابن جرير الطبري عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: **أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**(١).

فهؤلاء المنافقون لم يستهزئوا صراحة في شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ، وإنما وقوعهم في العلماء يتضمن الاستهزاء بكلام الله وكلام رسوله ﷺ.

ولأئمة السلف رحمهم الله عبارات تحمل التحذير من التعرض للعلماء بأي نوع من أنواع الإساءة، وتتهم من صدر منه شيء من ذلك برقة الدين ومعاداة سادة المؤمنين.

قال الإمام أحمد: إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة(٢) فاتهمه على الإسلام فإنه كان شديدا على المبتدعة (٣).

وقال يحيى بن معين(٤) إذا رأيت الرجل يتكلم في حماد بن سلمة وعكرمة مولى

---

(١) تفسير الطبري (٤٠٩/٦)

(٢) حماد بن سلمة بن دينار، الإمام القدوة أبو سلمة البصري النحوي، مفتي البصرة، أحد رجال الحديث، كان إماما في العربية فقيها فصيحا شديدا على المبتدعة، وكان مجاب الدعوة توفي سنة ١٦٧هـ انظر سير أعلام النبلاء (٤٤٤/٧و٤٤٦و٤٥١) وتهذيب التهذيب (١٠/٢-١٣) والأعلام للزركلي (٢٧٢/٢)

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٥٠/٧)

(٤) الإمام الحافظ شيخ المحدثين، إمام الجرح والتعديل، أبو زكريا، يحيى بن معين بن عون بن عبد الرحمن البغدادي، ولد سنة ١٥٨هـ أصله من الأنبار، ونشأ ببغداد،كان إماما ربانيا عالما حافظا ثبتا متقنا، قال عن نفسه: كتبت بيدي ألف ألف حديث، توفي بالمدينة سنة ٢٣٣هـ انظر سير أعلام النبلاء (٧١/١١) وتهذيب التهذيب (١٧٨١٨٢/٨) والأعلام للزركلي (١٧٢١٧٣/٨)

ابن عباس فاتهمه على الإسلام([1]).

والمتكلم في العلماء غير مصيب في كل الأحوال لأنه مغتاب والغيبة بكافة أشكالها غير جائزة، حتى وإن كان من اغتيب متصفا بما قيل فيه لقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته»**([2])

وهذا في عموم المسلمين فكيف بمن تعمد غيبة أعرف الناس بالله وأشدهم له خشية الموقعين عن رب العالمين، فمعاداتهم وإيذائهم من كبائر الذنوب ومن فعل ذلك فهو متوعد بحرب من الله تعالى، ففي الحديث القدسي الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب»**([3]) الحديث

يقول ابن عساكر: واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته: أن لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمرها عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم والاختلاف على من اختاره الله منهم لنشر العلم خلق ذميم([4]).

ومحبة العلماء وموالاتهم من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وبغضهم والتعرض لهم بالسوء من سبيل أهل الزيغ والانحراف، قال الطحاوي رحمه الله: وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخبر والأثر وأهل الفقه والنظر،لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل([5]).

فليتق الله من استطال لسانه في أعراض العلماء وليعلم أنه موقوف بين يدي الله

([1]) سير أعلام النبلاء (٤٤٧/٧)

([2]) رواه مسلم،كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩)

([3]) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم الحديث (٦٥٠٢)

([4]) تبيين كذب المفتري (٢٩) أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، دار الفكر، دمشق ١٣٩٩هـ

([5]) شرح العقيدة الطحاوية (٥٥٤)

تعالى، وليعلم أنه بفعله هذا محارب لله تعالى بمعاداته لخيرة أوليائه وأنى له إلى النصر عليهم سبيل، قال الحسن: ابنَ آدم هل لك بمحاربة الله من طاقة؟ فإن من عصى الله فقد حاربه، ولكن كلما كان الذنب أقبح كان أشد محاربة لله، ولهذا سمى تعالى أكلة الربا وقطاع الطريق محاربين لله تعالى ورسوله، لعظيم ظلمهم لعباده وسعيهم بالفساد في بلاده، وكذلك معاداة أوليائه، فإنه تعالى يتولى نصرة أوليائه ويحبهم ويؤيدهم فمن عاداهم فقد عادى الله وحاربه([1]).

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن وهب بن منبه([2]) قال: إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام حين كلمه: اعلم أن من أهان لي وليا أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة وبادأني وعرض نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي؟ أو يظن الذي يعازني أن يعجزني؟ أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني؟ وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة فلا أكل نصرتهم إلى غيري([3]).

([1]) جامع العلوم والحكم (٣٣٥/٢)

([2]) وهب بن منبه بن كامل بن سيج، تابعي جليل، له معرفة بكتب الأوائل، له صلاح وعبادة، عالم بأخبار الأولين ولاسيما الإسرائيليات، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، صحب ابن عباس ولازمه ثلاث عشرة سنة، ولاه عمر ابن عبد العزيز قضاء صنعاء، توفي سنة ١١٤هـ انظرسير أعلام النبلاء (٥٤٤٥٤٦/٤) والبداية والنهاية (٣٠٥/٩) والأعلام للزركلي (١٢٥-١٢٦)

([3]) رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد ص (٦٥) وهذا الخبر حكمه حكم ما يروى عن أهل الكتاب من أخبار والتي قال عنها النبي ﷺ فيما رواه أبو داود والإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «**ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله ورسوله، فإن كان باطلا لم تصدقوه وإن كان حقا فلا تكذبوه**»رواه أبو داود واللفظ له ورقمه (٣٦٤٤) والإمام أحمد (١٣٦/٤)

المبحث الرابع:

أبرز التهم التي ألصقت بالعلماء لصد الناس عن الاستفادة منهم

الحديث في العلماء واستطالة الألسنة في أعراضهم لم يكن معهودا في هذه البلاد إلى عهد قريب وإن كان في كثير من بلاد المسلمين قد قدم عهده واستفحل أمره وعم أثره، إلا أن الذي درج عليه أهل هذه البلاد أن العلماء لهم الاحترام والإجلال والحب والإكرام من العامة والخاصة لا يذكرون بغير الجميل، وتلهج الألسنة بالثناء عليهم والدعاء لهم، وبكلمة منهم يحسم الاختلاف ويعود المختلفون إلى ما سلف لهم من الائتلاف، ينتهي الناس عند كلامهم ويصدرون عن أقوالهم المؤيدة بنصوص الكتاب والسنة.

ومن تمكن المرض من قلبه وحجبت الغشاوة بصره لا يستطيع أن يُبين عما تكنه نفسه من الضغينة والكيد لأولياء الله، لأنه يعلم أن كيده عائد إلى نحره، وأنه سيبوء بسوء فعله، وذلك لاتفاق الكلمة على قبح فعله، واجتماع الأمة على لومه.

أما اليوم فقد فتح المجال للكلام في العلماء وانتشرت ظاهرة التصنيف لهم، ووجدت ناشئة همها القيل والقال يحرفون الكلم عن مواضعه، وفتح الباب على مصراعيه لكل من أراد أن يتحدث بحق أو بباطل ويختلط الناصح بالحاقد فلا يتبين المفسد من المصلح.

وتربى الناشئة على الوقيعة بالعلماء وتقطيع أعراض أهل العلم، فتجد الذي لا يحسن قراءة الفاتحة وبعض قصار سور القرآن يجعل من نفسه مرجعا في تقييم الرجال والجرح والتعديل دون علم أو روية، ولكن بهوى أججه في صدره قلة العلم، وإن أظهر ذلك في قالب النصح والغيرة على الدين، بينما الدافع الأكبر الذي حمله على ذلك الحط من شأن الفضلاء المشهود لهم بالصلاح والاستقامة والعلم والإمامة، الذين عجز أن يحقق ما حققوا وأن يصل إلى ما وصلوا، فاستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فبدلا من أن يحذوا حذوهم وينضم إلى ركبِهم ويقتفي أثرهم، غاظه سبقُهم وحسنُ أثرهم، فجعل لسانه مقراضا يفري في عباد الله وورثة

أنبيائه، يقول الإمام ابن رجب في وصف هذه الشاكلة: ومن أظهر التعيير: إظهار السوء وإشاعته في قالب النصح، وزعم أنه إنما يحمله على ذلك العيوب إما عاما أو خاصا، وكان في الباطن إنما غرضه التعيير والأذى، فهو من إخوان المنافقين الذين ذمهم الله في كتابه في مواضع، فإن الله ذم من أظهر فعلا وقولا حسنا وأراد به التوصل إلى غرض فاسد يقصده في الباطن وعد ذلك من خصال النفاق كما في سورة براءة التي هتك فيها المنافقين وفضحهم بأوصافهم الخبيثة **{والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل}**([1])([2]).

ومن أبرز التهم التي ألصقت بالعلماء والتي وجدت من يتقبلها ويحسن الظن بقائليها، والتي لم تكن لتجد آذانا صاغية لولا أن الدعاة باختلافهم قد أوجدوا ثغرة ينفذ من خلالها المتربصون والجهال ليحطموا القدوة العلمية التي لاغنى للناس عنها.

فمن هذه التهم التي نذكرها على سبيل الاختصار ما يلي:

١- اتهام العلماء بمداهنة الحكام والتزلف لهم وذلك لأغراض شخصية ومصالح دنيوية:

فحين يسمع الجاهلون لقواعد التعامل مع ولاة الأمر أن عالما من العلماء أثنى على ولي الأمر وشكره على بعض أعماله التي خدم من خلالها الإسلام يبادرون باتهامه بالمداهنة للولاة والتزلف لهم رغبة في مصلحة دنيوية، ومرد ذلك جهلهم العظيم بأحكام الشريعة وقواعد أهل السنة في الحكم على الأشخاص، فسفهوا العلماء واتهموهم بالنفاق لأجل هذه الكلمات التي صرحوا بها، والتي كان الأولى بهم أن يحملوها على أحسن المحامل وأنهم ما قالوها إلا رغبة في نصرة الدين وأهله.

([1]) سورة التوبة (١٠٧)

([2]) الفرق بين النصيحة والتعيير (٢٢)

وما دروا أن الثناء على الولاة حتى وإن كان عندهم بعض الأخطاء والمعاصي غير المكفرة ومحاولة استمالتهم لجانب أهل الحق وتلمس الأعذار لهم وعدم الحكم عليهم بالكفر والخروج من الإسلام ما لم يصدر منهم ما يوجب الحكم عليهم بذلك مقصد شرعي تتحقق بواسطته مصالح وتدرأ بسببه مفاسد.

يقول الأستاذ عثمان عبد السلام نوح: فالشباب عندما يرون أن هؤلاء الحكام أو غيرهم من المنتسبين إلى القبلة يفعلون أفعال الكفر يخبرون بها العلماء فيقول لهم العلماء: لعلهم جهلوا اللازم من ذلك، لعلهم ظنوا أنها مصلحة، لعلهم كذا.. لعلهم كذا، فالشباب الذي تحركه العواطف ولا تحركه القواعد يجزم إن هذا الأسلوب ما هو إلا تخدير للأعصاب ومداهنة للسلاطين، وطلبا للدنيا وزينتها، أقول قد يكون ذلك من باب الغرور والعياذ بالله عند أولئك الشباب، إذ يظنون أنهم وحدهم الغيورون على الإسلام وما يوجد أحد إلا وقد هان عليه الإسلام وباعه بأبخس الأثمان، ولعمر الله لو علموا أصول معاملة أهل القبلة، ما قادهم غرورهم إلى هذه الدرجة، إذ إن هؤلاء العلماء لا يسمحون بالتفريط في أقل سنة من سنن النبي ﷺ فكيف يرضون بيع دين الإسلام بالدراهم والدنانير([1]).

ولو أن هؤلاء المتكلمين قرؤوا في سير العلماء المتقدمين الذين كان لهم مواقف مع الولاة الذين صدر منهم أفعال يأباها أهل الإيمان، لازالت إلى اليوم تعد نقاط سوداء في سير أولئك الولاة، أو أنهم تلبسوا ببعض البدع التي ليس لها مستند من كتاب أو سنة ومع ذلك تشبثوا بها ودعوا إليها وامتحنوا العلماء وآذوهم وألزموهم أن يقولوا بقولهم، فماذا كان موقف العلماء منهم؟ وبماذا قوبل هؤلاء العلماء وهل اتهموا بالمداهنة وحب الدنيا أم أنه لازال لهم لسان صدق في الأمة وأن تلك المواقف قد حسبت لهم لا عليهم وأن إجماع الأمة قد انعقد على إجلالهم وإمامتهم.

وهذه نماذج يسيرة وإشارات عابرة لبعض ماجرى في عهد السلف يتضح منها المقصود بإذن الله.

- تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعهد من أبيه معاوية ﷺ، وجرى في عهده أمور

([1]) قواعد أهل السنة في معاملة أهل القبلة ص (٢٦) عثمان عبد السلام نوح، دار الإيمان

عظام وأحداث جسام منها قتل الحسين ﷺ فلم يعاقب من قتله أو يعزله عن ولايته.

روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: أتي عبيد الله بن زياد(١) برأس الحسين ﷺ فجعل في طست فجعل ينكت وقال في حسنه شيئا، فقال أنس كان أشبههم برسول الله ﷺ وكان مخضوبا بالوسمة(٢).

قال ابن كثير: وأمر ابن زياد فنودي الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين الذي أراد أن يسلبهم الملك ويفرق الكلمة عليهم، فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي فقال ويحك يا بن زياد، تقتلون أبناء الأنبياء وتتكلمون بكلام الصديقين، فأمر به ابن زياد فقتل وصلب، ثم أمر برأس الحسين فنصب بالكوفة وطيف به في أزقتها(٣).

وفي عهده كانت وقعة الحرة وسببها أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية وأخرجوا عامله من بين أظهرهم، وأجلوا بني أمية من المدينة فأرسل لهم يزيد جيشا بقيادة مسلم بن عقبة(٤) وقال له: ادع القوم ثلاثا فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظفرت عليهم فأبح المدينة ثلاثا ثم اكفف عن الناس.

وقد ظهر مسلم على أهل المدينة وهو الذي يسميه السلف مسرف بن عقبة قبحه

---

(١)عبيد الله بن زياد بن أبيه، ولد بالبصرة سنة ٢٨هـ، ولي خراسان سنة ٥٣هـ، ثم عين أميرا على البصرة سنة ٥٥هـ، أقره يزيد بن معاوية سنة ٦٠هـ، ولما مات يزيد بايع أهل البصرة لعبيد الله ثم لم يلبثوا أن وثبوا عليه فتنقل مختبئا إلى أن استطاع الإفلات إلى الشام وأقام مدة قليلة، ثم عاد يريد العراق فلحق به إبراهيم بن الأشتر في جيش يطلب ثأر الحسين فاقتتلا وتفرق أصحاب عبيد الله فقتله ابن الأشتر في (حازر) من أرض الموصل سنة ٦٧هـ. أنظر البداية والنهاية (٣١٢/٨) و الأعلام للزركلي (١٩٣/٤)

(٢) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما رقم الحديث(٣٧٤٨) والإمام أحمد (٢٦١/٣)

(٣) البداية والنهاية (٢٠٧/٨-٢٠٨)

(٤) مسلم بن عقبة بن رباح المري، أبو عقبة، أدرك زمن النبي ﷺ وشهد صفين مع معاوية، ولاه يزيد بن معاوية قيادة الجيش الذي أرسله للانتقام من أهل المدينة بعد أن اخرجوا عامله فغزاها وآذاها وأسرف فيها قتلا ونهبا فسماه أهل الحجاز مسرفا، فأخذ ممن بقي فيها البيعة ليزيد وتوجه بالعسكر إلى مكة ليحارب ابن الزبير لتخلفه عن البيعة ليزيد فمات في الطريق بمكان يسمى المشلل سنة ٦٤هـ. انظر البداية والنهاية (٢٤٦/٨) والأعلام للزركلي (٢٢٢/٧)

الله من شيخ سوء، ما أجهله فأباح المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد لا جزاه الله خيرا وقتل خلقا من أشرافها وقرائها وانتهبت أموال كثيرة ووقع شر عظيم، وفساد عريض([1]).

قال ابن كثير تعقيبا على ما أورده من خبر الحرة: وقد أخطأ يزيد خطأ فاحشا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة، وأبنائهم، وقد تقدم أنه قتل الحسين وأصحابه على يد عبيد الله بن زياد، وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه الله بنقيض قصده وحال بينه وبين ما يشتهيه، فقصمه الله قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر([2]).

ولو اسند القول إلى كثير من المعاصرين الذين يغلفون قلة فقههم بستار الغيرة على الدين لبادروا إلى الحكم بكفر من أقر وقوع هذه الأحداث ولما ترددوا في وصف من خالف قولهم من العلماء بالمداهنة وتملق الأمراء وغير ذلك من الأوصاف، فما عسى هؤلاء أن يقولوا فيمن أظهر المخالفة لأهل المدينة وعاب عليهم فعلهم وتبرأ من صنيعهم، وخرج من بينهم واعتزل ما هم فيه ولم يشاركهم في شيء مما صنعوا.

روى الإمام أحمد عن نافع([3]) عن ابن عمر أن ابن عمر جمع بنيه حين انتزى أهل المدينة مع ابن الزبير وخلعوا يزيد بن معاوية فقال: إنا قد بايعنا هذا الرجل ببيع الله ورسوله وإني سمعت رسول **الله ﷺ يقول الغادر ينصب له لواء يوم**

([1])البداية والنهاية (٨/٢٣٨و٢٣٩و٢٤١)

([2]) البداية والنهاية (٨/٢٤٣-٢٤٤)

([3]) الإمام المفتي عالم المدينة، أبو عبد الله، مولى ابن عمر وراويته، أصله من بلاد المغرب وقيل من نيسابور، وقيل من كابل، وقيل غير ذلك، من الثقات النبلاء والأئمة الأجلاء، روى عن ابن عمر وعائشة وأبي هريرة وغيرهم، بعثه عمر بن عبد العزيز إلى أهل مصر ليعلمهم السنن، توفي سنة ١١٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٥/٩٥١٠١) والبداية والنهاية (٩/٣٤٩) والأعلام للزركلي(٨/٦٠٥)

القيامة فيقال هذه غدرة فلان وإن من أعظم الغدر إلا أن يكون الإشراك بالله تعالى أن يبايع الرجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر فيكون صيلما(١) فيما بيني وبينكم»(٢).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى تعقيبا على ما وقع من أحداث في عهد يزيد وما تمخض عن خروج أهل المدينة عليه من أمور منكرة: والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة ووقوع الهرج وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال، وفعل الفواحش حتى مع النساء وغيرهن، وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه(٣).

- وهذا إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى الذي لا يتهم في دينه ولا يخالج الذهن شك في أنه يداهن الأمراء رغبة في عرض من الدنيا، يأمر بطاعة الولاة وعدم الخروج عليهم وإن كانوا أهل معاص وبدع.

قال حنبل: اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق(٤) إلى أبي عبد الله، وقالوا له إن الأمر قد تفاقم وفشا يعنون القول بخلق القرآن وغير ذلك ولا نرضى بإمرته ولا سلطانه، فناظَرَهم في ذلك وقال: عليكم بالإنكار بقلوبكم ولا تخلعوا يدا من طاعة،

---

(١) أي قطيعة بيني وبينه، وقال ابن الأثير القطيعة المنكرة والصيلم الداهية. المسند. ت. أحمد شاكر (١١٢/٧)

(٢) رواه الإمام أحمد (٤٨/٢و٩٦) وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح، المسند. ت. أحمد شاكر (١١٢/٧)

(٣) البداية والنهاية (٢٤٥/٨)

(٤) الواثق بالله، هارون بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد، ولد سنة ١٩٦هـ ولي الأمر بعهد من أبيه سنة ٢٢٧هـ، امتحن الناس في القول بخلق القرآن وسجن جماعة، وقتل في ذلك أحمد بن نصر الخزاعي بيده سنة (٢٣١هـ)، قيل إنه رجع بعد ذلك عن القول بخلق القرآن، مات في سامرا سنة ٢٣٢هـ، كانت خلافته خمس سنن ونصفا انظر سير أعلام النبلاء(٣٠٦/١٠-٣٠٨و٣١٢-٣١٤) والبداية والنهاية (٣٣٩٣٤١/١٠) والأعلام للزركلي (٦٢٦٣/٨)

ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر(١).

مع أن الواثق قد دعا الناس إلى القول بخلق القرآن وآذى العلماء وعذبهم وألجأهم إلى القول بقوله واعتقاد مذهبه الباطل.

قال ابن كثير وهو يحكي ما جرى لأحمد بن نصر الخزاعي(٢) بين يدي الواثق: وكان الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن يدعو إليه ليلا ونهارا سرا وجهارا، فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدي الواثق قال له: ما تقول في القرآن؟ فقال: هو كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، فقال له: ما تقول في ربك؟ أتراه يوم القيامة؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك، قال الله تعالى: **{وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة}**(٣) وقال رسول الله: **«إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»**(٤).

قال الواثق: ويحك! أيرى كما يرى المحدود المتجسم؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر برب هذه صفته.

قال ابن أبي دؤاد(٥): هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل، فقال الواثق: إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي فإني أحتسب خطاي، ثم نهض إليه بالصمصامة فلما انتهى إليه ضربه على عاتقه وهو مربوط بحبل قد أوقف

---

(١) الآداب الشرعية (١٩٦/١) للإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي مؤسسة الرسالة ط (٢) ١٤١٧هـ

(٢) الإمام الكبير الشهيد أبو عبد الله، أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي المروزي ثم البغدادي، كان جده أحد نقباء الدولة العباسية، وكان أحمد أمارا بالمعروف قوالا للحق، امتنع عن القول بخلق القرآن فقتله الواثق سنة ٢٣١هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١٦٦١٦٩/١١) والبداية والنهاية (١٠/ ٢٣٦) وتهذيب التهذيب (٥٩/١) والأعلام للزركلي (٢٦٤/١)

(٣) سورة القيامة (٢٣)

(٤) رواه البخاري،كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم الحديث (٥٧٣)

(٥) أبو عبد الله، أحمد بن فرج بن حريز الأيادي البصري ثم البغدادي، الجهمي، عدو أحمد بن حنبل، كان داعية إلى القول بخلق القرآن، ولي قضاء القضاة للمعتصم ثم للواثق، توفي سنة ٢٤٠هـ انظر سير أعلام النبلاء (١٦٩١٧١/١١) والبداية والنهاية (٣٥٢/١٠-٣٥٦)

على نطع ثم ضربه أخرى على رأسه ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط صريعا، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياما وفي الغربي أياما، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها: هذا رأس المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي ممن قتل على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه([1]).

وهذا الإمام أحمد رحمه الله يحكي ما جرى له من الامتحان ومحاولة الإكراه على أن يقول بقول المعتزلة وقد تعاقب على ذلك ثلاثة خلفاء من خلفاء بني العباس هم المأمون ثم تلاه المعتصم ثم الواثق كلهم يقول بقول من سبقه ويرى إكراه الناس على ذلك، وقد عذب رحمه الله بين يدي المعتصم ولم يأل المعتصم جهدا في استمالة الإمام أحمد إلى صفه بالترهب تارة وبالترغيب أخرى، لكنه رحمه الله ثبت ثبوت الجبال الرواسي ولم يوافقهم إلى شيء مما يدعونه إليه، لكننا نلحظ في حواره للمعتصم أنه يناديه بأمير المؤمنين وهذا يتضمن إقراره له بخلافة المسلمين وأنه لم يكفر بتلبسه بهذه البدعة الشنيعة، فيقول رحمه الله: ثم دعيت فأدخلت على المعتصم فلما دنوت منه وسلمت قال لي: ادنه، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال: اجلس فجلست وقد أثقلني الحديد، فمكثت ساعة ثم قلت: يا أمير المؤمنين إلى ما دعا إليه ابن عمك رسول الله ﷺ ؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، قلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، قال: ثم ذكرت له حديث ابن عباس في وفد عبد القيس ثم قلت: فهذا الذي دعا إليه رسول الله ﷺ قال: ثم قال ناظره يا عبد الرحمن، كلمه، فقال لي: ما تقول في القرآن؟ فلم أجبه، فقال المعتصم: أجبه، فقلت: ما تقول في العلم؟ فسكت فقلت: القرآن من علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله، فسكت، فقالوا فيما بينهم: يا أمير المؤمنين: كفرك وكفرنا،

([1]) البداية والنهاية (١٠/٣٣٤-٣٣٦)

فلم يلتفت إلى ذلك، فقال عبد الرحمن: كان الله ولا قرآن؟ فقلت: كان الله ولا علم؟ فسكت، فجعلوا يتكلمون من هاهنا وهاهنا، فقلت يا أمير المؤمنين أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به، فقال ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا بهذا؟ فقلت: وهل يقوم الإسلام إلا بهما، وجرت مناظرات طويلة، واحتجوا عليه بقوله تعالى: **{ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث}**(١) وبقوله: **{الله خالق كل شيء}**(٢) وأجاب بما حاصله أنه عام مخصوص بقوله **{تدمر كل شيء بأمر ربها}**(٣) فقال ابن أبي دؤاد: هو والله يا أمير المؤمنين ضال مبتدع.

وقد تنوعت بهم الوسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل، فجعلوا ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها، وسمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحدا يقولها، وقد أوردت لهم حديث الرؤية في الدار الآخرة فحاولوا أن يضعفوا إسناده ويلفقوا عن بعض المحدثين كلاما يتسلقون به إلى الطعن فيه، وهيهات وأنى لهم التناوش من مكان بعيد.

فلما لم يقم لهم حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة فقالوا يا أمير المؤمنين: هذا كافر ضال مبتدع مضل، وقال له إسحاق بن إبراهيم(٤): يا أمير المؤمنين: ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين، فعند ذلك حمي واشتد غضبه وقال لعنك الله طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني ثم قال: خذوه واخلعوه واسحبوه.

فقلت يا أمير المؤمنين: الله الله إن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل دم امرئ مسلم**

---

(١) سورة الأنبياء (٢)

(٢) سورة الزمر (٦٢)

(٣)سورة الأحقاف (٢٥)

(٤) إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي، أمير بغداد، ووليها نحوا من ثلاثين سنة، وعلي يده امتحن العلماء بأمر المأمون في خلق القرآن، مات سنة ٢٣٥هـ انظر سير أعلام النبلاء (١٧١/١١) والبداية والنهاية (٣٤٦/١٠)

إلا بإحدى ثلاث»([1]) وتلوت الحديث، وأن رسول الله ﷺ قال:**«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم»**([2]) فبما تستحل دمي ولم آت شيئا من هذا؟ يا أمر المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله، فكأنه أمسك، ثم لم يزالوا يقولون له: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر فأمر بي، فقمت بين العقابين([3]).

والمثالان السابقان يعطيان صورة واضحة لما كان عليه السلف من الصبر على الولاة وعدم إطلاق الألسنة بسبهم والتشنيع عليهم وتأليب العامة ضدهم بالرغم مما هم عليه من بدع يدعون إليها ويؤذون لأجلها من خالفهم، بل كانوا على العكس من ذلك، يتلطفون معهم في الخطاب، ويعتبرون ولايتهم ولاية شرعية لا يجوز نقضها والخروج عليها.

فما بال كثير من المعاصرين لا يتورعون عن اتهام العلماء بشتى التهم ولا يحسنون بهم الظن، بل إن كثيرا منهم ينظر إلى العلماء وكأن كل شيء بأيديهم وأن كل ما يحدث في البلاد بموافقتهم وبرضى منهم، وما دروا أنهم لا يملكون إلا النصح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وما عدى ذلك فإنهم مثل غيرهم ولسان حالهم يقول ما لا يدرك كله لا يترك جله.

([1]) جزء من حديث رواه أبو داود، واللفظ له،كتاب الديات، باب الإمام يأمر بالعفو في الدم، رقم الحديث (٤٥٠٢) والترمذي،كتاب الفتن، باب ما جاء لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، رقم الحديث (٢١٥٨) والنسائي، كتاب التحريم، ذكر ما يحل به دم المسلم، رقم الحديث(٤٠٣١) و الإمام أحمد (٦١/١) وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح، المسند. ت. أحمد شاكر (٣٤٨/١)

([2]) رواه الترمذي، واللفظ له،كتاب تفسير القرآن،باب(ومن سورة الغاشية) رقم الحديث(٣٣٤١) والنسائي،كتاب التحريم،كتاب تحريم الدم، رقم الحديث (٣٩٩٣) وابن ماجة،كتاب الفتن، باب الكف عمن قال لا إله إلا الله، رقم الحديث سبق تخريجه (٣٩٢٧) والإمام أحمد (٦٧/١) وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح، المسند. ت. أحمد شاكر(١٨١/١)

([3]) انظر البداية والنهاية (٣٦٦/١٠-٣٦٨)

وهذا الفهم للنصوص الشرعية وتنزيلها على الواقع هو الذي يدعو العلماء إلى دعوة الناس إلى طاعة ولاة الأمر في المعروف والأمر بلزوم بيعتهم والثناء عليهم فيما يفعلونه من أمور تعود مصلحتها للإسلام والمسلمين تشجيعا لهم في الاستزادة من أعمال الخير وتعليما للناس في مراعاة حقوق ولاة الأمر والاعتراف بما يحصل بسببهم من إصلاح.

٢- اتهام العلماء بموالاة أهل البدع وعدم الإنكار عليهم

وكما يتخذ فريق موقف العلماء من الولاة سبيلا إلى إسقاط عدالتهم، يعمد آخرون إلى أسلوب آخر ينفذون من خلاله إلى تحقيق مآربهم من الوقيعة في العلماء واتهامهم بالبدعة ومخالفة منهج السلف، فحين يسمعون أن عالما من العلماء أو داعية من الدعاة استشهد بكلام من يصنفونه من أهل البدع، أو مدحه في مؤلف من مؤلفاته أو موقفا من مواقفه يبادرون إلى اتهامه بموالاة أهل البدع ومحبتهم والدفاع عنهم ورتبوا على موقف من تكلموا فيه لوازم باطلة ليست بلازمة، ولو طبقنا قاعدتهم هذه ومنهجهم المعوج في تقويم الرجال لما سلم أحد من علماء المسلمين.

فمن البديهي المتفق عليه عند ذوي الأفهام أنه ليس كل من وافق غيره في قول من أقواله أو أيده في فعل من أفعاله أن ذلك يعني اتفاقهما في كل المواقف واتحاد آرائهما في جميع القضايا، ومن قرأ في كتب أهل العلم من السلف والخلف سيجد أنهم يستشهدون بكلام من اشتهر ببدعة كبدعة الخوارج والمعتزلة والمتصوفة دون نكير من بعضهم على بعض طالما أنهم لا يوافقونه على بدعته ولا يتضمن نقلهم لكلامه الإقرار له بسلامة مذهبه، بل إن من أئمة السلف من مدح من اشتهر بالبدعة ودعا إليها ونافح عنها وعرف انحرافه عن مذهب السلف، فما عد بذلك مبتدعا وما رماه أحد من معاصريه بشيء من ذلك، وفي رسالة شيخ الإسلام ابن

تيمية رحمه الله تعالى إلى نصر المنبجي(١) وهو رأس من رؤوس المبتدعة وفيها من الثناء عليه والدعاء له ما يتوهم من قرأها صلاح مذهبه ونقاء مشربه، فمما جاء في رسالة شيخ الإسلام قوله: من أحمد بن تيمية إلى الشيخ العارف القدوة الناسك أبي الفتح نصر، فتح الله على باطنه وظاهره ما فتح على قلوب أوليائه ونصره على شياطين الإنس والجن في جهره وإخفائه، ونهج به الطريقة المحمدية الموافقة لشرعه وكشف به الحقيقة الدينية المميزة بين خلقه وطاعته وإرادته ومحبته حتى يظهر للناس الفرق بين الكلمات الكونية والكلمات الدينية وبين المؤمنين الصادقين الصالحين، ومن تشبه بهم من المنافقين، كما فرق الله بينهما في كتابه وسنته.

إلى أن قال: فإن الله قد أتم على الشيخ، وأنعم به نعمة باطنة وظاهرة في الدين والدنيا، وجعل له عند خاصة المسلمين الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا منزلة علية ومودة إلهية، لما منحه الله تعالى به من حسن المعرفة والقصد(٢)،

في رسالة طويلة بين فيها الشيخ حقيقة الإسلام وحقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ ومقامات العباد في فهم هذا التوحيد وتحقيقه، وبين طريقة المخالفين لما جاء به المرسلون الذين موهوا على الناس التوحيد، فعطلوا الصفات وجحدوا الخالق وقالوا بقول أهل الحلول والاتحاد.

وختم شيخ الإسلام رسالته إليه بقوله: وهذا الكتاب مع أني أطلت فيه الكلام على الشيخ أيد الله تعالى به الإسلام ونفع به المسلمين ببركة أنفاسه وحسن مقاصده ونور قلبه(٣).

ومعلوم أن نصر المنبجي هذا من شيوخ الضلال، بل إن ابن كثير نسبه إلى

---

(١) نصر بن سليمان، أبو الفتح المنبجي، كان الجاشنكير السلطان يعتقد فيه، وكان يغالي في محبة ابن عربي الصوفي، أنشا له زاوية خارج باب النصر وصار يتعبد فيها ويتردد عليه الأكابر، مات سنة ٧١٩هـ. انظر البداية والنهاية (١٠٩/١٤)

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٤٥٢/٢و٤٥٣)

(٣) المرجع السابق (٤٧٩/٢)

القول بقول أهل الحلول والاتحاد، ومع ذلك نلاحظ أن شيخ الإسلام تلطف معه ومدحه بما ليس فيه ونصحه بأسلوب غير مباشر وبين له ضلال الصوفية وما اصطلحوا عليه من إشارات ومقامات ليست من دين الله في شيء، ولاشك أن شيخ الإسلام يهدف من وراء ذلك إلى استمالته إلى صف أهل الحق، ولا يُظن أنه بمدحه له قد صار مؤيدا لأهل البدع متسامحا معهم مواليا لهم.

وهذا ما ينبغي أن يظن في من عرف بالسنة والانتساب إليها حين يتكلم بإنصاف في بعض المخالفين لمنهج السلف فيمتدح ما هم عليه من الحق، أو يكون الممدوح له أتباع فيرجى من وراء مدحه والثناء عليه استمالته والتأثير على أتباعه، أو غير ذلك من المصالح، لكن الهوى يعمي ويصم.

٣- اتهام العلماء بالجهل بالواقع:

وتجدُ فئةٌ أخرى شبهةً تشبثت بها واتخذتها وسيلة للكلام في العلماء والوقيعة فيهم: ألا وهي زعمهم: أن العلماء لا يفقهون الواقع وهم بمعزل عن مجريات الأحداث ومعرفة ما يجري حولهم من أمور، تحول جدران مكتباتهم بينهم وبين ما حولهم، وأنهم منغلقون على أنفسهم، لا يفقهون سياسة ولا يحسنون التحدث عما يهم الناس ويشغلهم من قضايا، ولذلك فهم يحسنون الظن بمن ينبغي إساءة الظن فيه والتحذير منه كالعلمانيين والمنافقين، ومرد ذلك جهلهم بحالهم وعدم معرفتهم بحقيقة نواياهم الخبيثة.

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في رده على من اتهم العلماء بالجهل بالواقع: الواجب على المسلم أن يحفظ لسانه عما لا ينبغي وألا يتكلم إلا عن بصيرة، فالقول بأن فلانا لم يفقه الواقع هذا يحتاج إلى علم ولا يقول هذا إلا من عنده علم حتى يستطيع الحكم بأن فلانا لم يفقه الواقع، أما أن يقول هذا جزافا ويحكم برأيه من غير دليل فهذا منكر عظيم لا يجوز، والعلم بأن صاحب الفتوى لم

يفقه الواقع يحتاج إلى دليل ولا يتسنى ذلك إلا للعلماء([1]).

ويقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: وأما هؤلاء الدعاة الذين يدندنون اليوم حول فقه الواقع ويفخمون أمره ويرفعون شأنه وهذا حق في الأصل فإنهم يغالون فيه، حيث يَفهَمون ويُفهِّمون ربما من غير قصد أنه يجب على كل عالم بل على كل طالب علم أن يكون عارفا بهذا الفقه، مع أن كثيرا من هؤلاء الدعاة يعلمون جيدا أن هذا الدين الذي ارتضاه ربنا عز وجل في أمة الإسلام قد تغيرت مفاهيمه منذ قديم الزمان حتى فيما يتعلق بالعقيدة، فنجد أناسا كثيرين جدا يشهدون أن لا إله إلا الله ويقومون بسائر الأركان بل قد يتعبدون بنوافل من العبادات كقيام الليل، والصدقات ونحو ذلك، ولكنهم انحرفوا عن مثل قوله تعالى: **{فاعلم أنه لا إله إلا الله}**([2])([3]).

ويبين الشيخ أن هؤلاء الذين يعيبون على العلماء عدم اهتمامهم بفقه الواقع كأحوال السياسة قد صرفوا اهتمامهم إلى هذه القضايا وانشغلوا بها عن أمور أهم منها بكثير كإصلاح عقائد الناس وتعليمهم ما يخفى عليهم من أحكام دينهم.

ثم بعد ذلك يأتي الاهتمام بتعليم الناس ودعوتهم إلى العناية بفقه الواقع الذي تعَلُمُه فرض كفاية، يغني فيه البعض عن الكل فيقول: ونحن نعلم أن كثيرا من أولئك الدعاة يشاركوننا في معرفة سبب سوء الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم جذريا، ألا وهو بعدهم عن الفهم الصحيح للإسلام فيما يجب على كل فرد وليس فيما يجب على بعض الأفراد فقط، فالواجب تصحيح العقيدة وتصحيح العبادة وتصحيح السلوك.

([1]) مجلة رابطة العالم الإسلامي عدد (٣١٣) نقلا عن قواعد في التعامل مع العلماء ص (١٠٨) تأليف: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار الوراق، ط(١) ١٤١٥هـ .

([2]) سورة محمد (١٩)

([3]) سؤال وجواب حول فقه الواقع ص (٥٥-٥٦) محمد ناصر الدين الألباني، دار الجلالين، ط (١) ١٤١٢هـ

أين من هذه الأمة من قام بهذا الواجب العيني وليس الواجب الكفائي؟ إذ الواجب الكفائي يأتي بعد الواجب العيني وليس قبله.

ولذلك فإن الانشغال والاهتمام بدعوة الخاصة من الأمة الإسلامية إلى العناية بواجب كفائي ألا وهو فقه الواقع، وتقليل الاهتمام بالفقه الواجب عينيا على كل مسلم وهو فقه الكتاب والسنة بما أشرت إليه: هو إفراط وتضييع لما يجب وجوبا مؤكدا على كل فرد من أفراد الأمة المسلمة، وغلو في رفع شأن أمر لا يعدو كونه – على حقيقته – واجبا كفائيا.

إلى أن يقول: فقه الواقع بمعناه الشرعي الصحيح هو واجب بلا شك، ولكن وجوبا كفائيا، إذا قام به البعض سقط عن سائر العلماء، فضلا عن طلاب العلم، فضلا عن عامة المسلمين.

فلذلك يجب الاعتدال بدعوة المسلمين إلى معرفة فقه الواقع وعدم إغراقهم بأخبار السياسة وتحليلات مفكري الغرب.

أما الطعن في بعض العلماء أو طلاب العلم ونبزهم بجهل فقه الواقع، ورميهم بما يستحيى من إيراده: فهذا خطأ وغلط ظاهر لا يجوز استمراره، لأنه من التباغض الذي جاءت الأحاديث الكثيرة لنهر المسلمين، بل لتأمرهم بضده من التحاب والتلاقي والتعاون([1]).

أما عدم معرفتهم بأهل النفاق والعلمانيين الذين يستترون بنفاقهم ولا يصرحون بما تكنه ضمائرهم فهذا لا يعد قدحا فيهم، بل إن الذي ينبغي أن يظن بهم أن الذي يمنعهم من التشهير بالآخرين، الورع ومخافة اتهام الناس بما ليس فيهم، قال الذهبي رحمه الله: كان جماعة في أيام النبي ﷺ منتسبين إلى صحبته وإلى ملته وهم في الباطن مردة المنافقين قد لا يعرفهم نبي الله ﷺ ولا يعلم بهم، قال الله تعالى **{ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم**

([1]) المرجع السابق (٥٦-٥٨)

مرتين}([1]) فإذا جاز على سيد البشر أن لا يعلم ببعض المنافقين وهم معه في المدينة سنوات، فبالأولى أن يخفى حال جماعة من المنافقين الفارغين عن دين الإسلام بعده عليه السلام على العلماء من أمته، فما ينبغي لك يا فقيه أن تبادر إلى تكفير المسلم إلا ببرهان قطعي، كما لا يسوغ لك أن تعتقد العرفان والولاية فيمن قد تبرهن زغله وانهتك باطنه وزندقته، فلا هذا ولا هذا، بل العدل أن من رآه المسلمون صالحا محسنا فهو كذلك، لأنهم شهداء الله في أرضه، إذ الأمة لاتجتمع على ضلالة، وأن من رآه المسلمون فاجرا أو منافقا أو مبطلا، فهو كذلك، وأن من كان طائفة من الأمة تضلله وطائفة تثني عليه وتبجله وطائفة ثالثة تقف فيه وتتورع من الحط عليه، فهو ممن ينبغي أن يعرض عنه وأن يفوض أمره إلى الله وأن يستغفر له في الجملة، لأن إسلامه أصلي بيقين وضلاله مشكوك فيه، فبهذا تستريح ويصفو قلبك من الغل للمؤمنين([2]).

فإذا كان النبي ﷺ يخفى عليه حال بعض المنافقين ولم يطلعه الله على ما في نفوسهم، وكذلك أصحابه من بعده لم يكونوا يعاملون الناس إلا بما ظهر لهم من أعمالهم، والعلماء من بعدهم يسلكون طريقتهم فيعاملون الناس بالظاهر ولا يخوضون في مكنونات الضمائر، ولا يعابون على ذلك لأن فعلهم هو ما تقتضيه أحكام الشرع، لكن الذين لا يعلمون تتحول عندهم المناقب إلى مثالب، فأولى لهم كف ألسنتهم عن الخوض في أعراض العلماء بغير دليل، وإحسان الظن بهم ما داموا يجدون إلى حسن الظن سبيلا.

([1]) سورة التوبة (١٠١)

([2]) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٤٣)

المبحث الخامس: أهمية حماية أعراض العلماء والحرص على استمرارهم في موضع القدوة

حين تتوارد الفتن وتدلهم الخطوب، ويتكلم كل متكلم وتتاح السبل لكل من أراد أن يلقي ما عنده من الشبه المضلة، تعظم الحاجة إلى القدوة التي يميز عن طريقها الحق من الباطل ويعرف بواسطتها دعاة الحق ودعاة الضلال، فيلتزم الناس الحق ويأخذون به ويؤيدون أهله، ويتجنبون الباطل ويحذرون منه ويعادون دعاته.

والقدوة التي يحتاج إليها حين تكون الأمور بهذه الصورة هم أولوا العلم الذين تُجلهم الأمة وتثق بهم وتصدر عن رأيهم ومشورتهم ولا تختلف عليهم.

وحين وقعت فتنة خلق القرآن كان للإمام أحمد رحمه الله فيها موقف مشهود وكان موقفه الذي وقفه سبب في وقاية الناس من التلبس بهذه البدعة، يقول أبو جعفر الأنباري: لما حمل أحمد إلى المأمون أخبرتُ فعبرت الفرات فإذا هو جالس في الخان فسلمت عليه فقال يا أبا جعفر تعنيت، فقلت يا هذا أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فو الله لإن أجبت إلى خلق القرآن، ليجيبن خلق، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، لابد من الموت، فاتق الله ولا تجب، فجعل أحمد يبكي، ويقول: ما شاء الله. ثم قال: يا أبا جعفر، أعد علي، فأعدت عليه، وهو يقول: ما شاء الله([1]).

فتأمل كيف قمع الله بالإمام أحمد هذه الفتنة ووقى الأمة شرها وكبت أهلها، وأضعف شأنهم، وأوهى شبهاتهم، ومما ينبغي أن يتأمل ويتوقف عنده كثيرا مكانة الإمام أحمد رحمه الله في الأمة في ذلك الوقت، فقد كان موضع الإجلال والتقدير يثق الناس بعدالته وبدينه عالمهم وجاهلهم في ذلك سواء، ولم يكن من بين المنتسبين للعلم والدعوة المحسوبين على أهلها من يشكك في عدالته وسلامة منهجه وصلاح مقصده، فصدر الناس عن رأيه وقالوا بقوله لعظيم ثقتهم بدينه وعلمه.

أرأيت لو كان من بين أهل العلم والدعاة في زمانه من يتكلم في عدالته ويشكك

([1]) سير أعلام النبلاء (١١/٢٣٨-٢٣٩)

في نزاهته، ويربي طلابه على ذلك ويدعو غيره إلى تبني موقفه والقول بقوله، لا شك أن ثمرة ذلك ستكون تفرق الناس إلى شيع وأحزاب وستتعدد الأقوال، لأن الناس ليس لهم رأس ولا إمام يعينهم على التمييز بين الحق و الباطل.

والذي نشاهده اليوم من استطالة بعض الأقلام والألسنة لتنال من أعراض العلماء وتتهمهم بما هم منه برءاء، سيؤدي إلى تحطيم القدوة العلمية وسينصرف الناس عنهم إلى غيرهم من دعاة الضلال، أو المتسمين بالعلم، وهم ليسوا من أهله فيضلوا ويضلوا، ويصبح العلماء وهم على قيد الحياة كأنهم أموات لا ينتفع بعلمهم ولا يستفاد منهم، التوجيه والإرشاد وتمييز الهدى من الضلال، حتى يتحقق في الناس قول النبي ﷺ الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»**([1]).

وكم حالت الوقيعة في العلماء والقول فيهم بغير حق، بين الناس وبين قبول ما جاءوا به من الحق وما دعوا إليه من الهدى.

ودعوة الشيخ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، أبرز مثال على ذلك فقد ظهرت هذه الدعوة في وقت افتتن به الناس بأنواع الشرك والبدع في أنحاء كثيرة من بلاد المسلمين، فتصدى لها رحمه الله بحزم وعزم، ولم تنحصر دائرة أثر هذه الدعوة على نجد والجزيرة العربية وإنما تجاوزتها إلى بلدان عديدة وأحدثت آثارا طيبة وقامت بدور هام في إنقاذ الناس من أدران الشرك والبدع ولوثات الجاهلية، وعادت بهم إلى معين الكتاب والسنة، لكن الذي يؤسف له أن طائفة ممن ينتسبون إلى الدعوة وينتسبون للعلم وقفوا من الدعوة وأهلها موقف البراءة والطعن والعداء،

([1]) رواه البخاري، واللفظ له،كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم الحديث، رقم الحديث (١٠٠) ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن، في آخر الزمان، رقم الحديث (٢٦٧٣)

وامتدت طعونهم لتنال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأبدوا استياءهم وكراهتهم لهذه الدعوة، ووجهوا إليها أنواعا من التهم، واستمرت هذه المواقف المعادية يتلقاها التلاميذ من شيوخهم ويشيعونها بين الناس الذين يثقون بهم وبعلمهم ويحسبون أنهم على شيء فكان لهذه المواقف دور في تشويه حقيقة هذه الدعوة وإظهارها بصورة مخالفة لما هي عليه.

ففي نجد موطن الدعوة تعددت أوجه المعارضة لدعوة التوحيد وتنوعت سبل المناهضة لها من قبل بعض العلماء الذين عارضوا الشيخ وناصبوه العداء وصنفوا المصنفات في تبديعه وتضليله وتعييره، ويصف الدكتور عبد الله العثيمين موقف المعارضين للشيخ بقوله: واضح من رسائل الشيخ الشخصية أن دعوته لقيت معارضة شديدة من قبل بعض علماء نجد، فالمتتبع لها يلاحظ أن أكثر من عشرين عالما أو طالب علم وقفوا ضدها في وقت من الأوقات([1]).

ويبين العثيمين أبرز وجوه الكيد التي لقيتها الدعوة من علماء نجد بأنها تمثلت فيما يلي:

١- الكتابة ضدها: والمتأمل في هذه الرسائل يرى كثرة تلك الكتابة وإن كان من المتوقع أن أغلبها لم يكن طويل المحتوى.

٢ - الاتصال بالعلماء وذوي النفوذ خارج نجد وتحريضهم ضد الشيخ ودعوته

٣- ترويج الكتب التي ألفها علماء غير نجديين ضد الدعوة بين الناس([2]).

ودعوة الشيخ وموقف بعض العلماء منها مثال يتكرر مثله كثير يوضح ما يترتب على الوقيعة في العلماء والكلام فيهم بغير حق من أثر سيئ على الدعوة، وقد تضل طائفةٌ من الناس بسبب اتباعهم لعلمائهم الذين لم يوفقوا للأخذ بالحق والدعوة إليه.

([1]) الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن أسبوع الشيخ، مركز البحوث بجامعة الإمام ١٤٠٣هـ ص(١/١٠٨و١٠٩)

([2]) الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ضمن بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب(١/١١١١١٣)

الخاتمة:

أحمد الله تعالى الذي بحمده تتم الصالحات، وأسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت لإضافة ما فيه نفع ، وقد حاولت في هذا البحث بيان دور العلماء في الأمة وما لهم من الأهمية التي بينتها أدلة الشرع المطهر، ثم بينت الأساليب المثلى في التعامل مع العلماء ، وذلك لشدة حاجة الأمة إليهم وعدم استغنائهم عنهم ، ثم بينت ما يترتب على الوقيعة فيهم وتشويه سيرتهم وتصيد أخطائهم من مفاسد تحول دون الاستفادة منهم.

ثم ذكرت أمثلة لما يتهم به العلماء من تهم وما يلصق بهم من نقائص، وبينت أنها في الحقيقة لا تعدو كونها أوهاما تخيلتها أذهان من تصدر منهم هذه التهم.

التوصيات:

أما أهم التوصيات التي أوصي بها كل داعية إلى الله، فتتمثل فيما يلي:

١- في مقدمة الوصايا وأولاها بالعناية ما وصى به الله الأولين والآخرين، فقال سبحانه وتعالى:**{ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله}**([1])

فالتقوى وصية الله لكل خلقه، وأولى الناس بها الدعاة إلى الله ورثة الأنبياء السائرون على طريقهم، فلا بد أن يكون لهم منها حظ وافر، فالداعية إن اتقى الله حرص أن يكون عمله لله، ينصف المخالف قبل الموافق ويقول الحق الذي قامت عليه الأدلة الصحيحة، دون محابة لموافق، أو حيف على مخالف، عملا بقول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى[2].

([1]) سورة النساء (١٣١)

([2]) – سورة المائدة (٨)

ولو على أنفسكم متبعا لا مبتدعا، يحب في الله ويبغض في الله ويوالي في الله ويعادي في الله .

٢- قراءة كتب السير والتراجم والتعرف عن قرب على سير الأئمة والعلماء والاستفادة من طريقتهم في التعامل مع الفتن التي تعرضوا لها ، والتهم التي كادهم بها مخالفوهم.

وختاما:

فإني أحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه المآل، وأسأله وهو خير مسؤل أن يغفر لي زلتي ويقيل عثرتي ويثبت حجتي.

وصلى الله على نبينا محمد وآل وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المراجع:

١- القرآن الكريم
٢- الحديث الشريف
٣- تفسير الطبري، المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ الجامع لأحكام القرآن
٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن السعدي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ١٤١٠هـ
٥- شرح السنة، للإمام البغوي، زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي الطبعة الأولى،١٤٠٠هـ
٦- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين
٧- الرد على الجهمية والزنادقة مع مقدمة في علم الكلام والمذاهب الهدامة لإمام أحمد بن حنبل تحقيق وتعليق عبد الرحمن عميرة، دار اللواء للنشر، ط ٢ ١٤٠٢هـ
٨- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق :محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ
٩- تبيين كذب المفتري أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، دار الفكر، دمشق ١٣٩٩هـ
١٠- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، المكتب الإسلامي
١١- رفع الملام عن الأئمة الأعلام، شيخ الإسلام ابن تيمية، زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ
١٢- أخلاق العلماء للإمام أبي بكر الآجري، دار الثقافة ط ٢ ١٤٠٤هـ
١٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة / للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر قيم الجوزية، دار ابن عفان ط ٤٦هـ
١٤- إعلام الموقعين عن رب العالمين الإمام ابن قيم الجوزية، عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٣هـ
١٥- الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي (١٥٧/٤) ط (١) دار الكتب العلمية بيروت

١٦- جامع العلوم والحكم الإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الشهير بابن رجب تحقيق، شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة ط (٣) ١٤١٣هـ
١٧- جامع بيان العلم وفضله ، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهري دار ابن الجوزي الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ
١٨- سؤال وجواب حول فقه الواقع ص ٥٥-٥٦ محمد ناصر الدين الألباني، دار الجلالين، ط ٤٢هـ
١٩- الآداب الشرعية، أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ
٢٠- الفرق بين النصيحة والتعيير، زين الدين ابن رجب الحنبلي، دار عمار، ١٤٠٩هـ
٢١- قواعد أهل السنة في معاملة أهل القبلة عثمان عبد السلام نوح، دار الإيمان
٢٢- قواعد في التعامل مع العلماء، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار الوراق، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ
٢٣- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ
٢٤- الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر العسقلاني، محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، ١٤١٢هـ
٢٥- تهذيب التهذيب، الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ
٢٦- الأعلام خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨٤م
٢٧- البداية والنهاية، الحافظ إسماعيل بن كثير، تحقيق، علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ
٢٨- الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن أسبوع الشيخ، مركز البحوث بجامعة الإمام ١٤٠٣هـ
٢٩- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى،١٣٠٠هـ

فهرس الموضوعات

مقدمة: ٥٣٥
المبحث الأول: مكانة العلماء ٥٣٧
الوجوه الدالة على فضل العلماء وعلو منزلتهم: ٥٣٧
الوجه الأول: ٥٣٧
الوجه الثاني: ٥٣٨
الوجه الثالث: ٥٣٩
الوجه الرابع: ٥٤٠
الوجه السادس: ٥٤١
المبحث الثاني: الطريقة المثلى في التعامل مع العلماء: ٥٤٤
المبحث الثالث: حاجة العباد إلى العلم والعلماء ٥٤٩
خطر الوقيعة في العلماء: ٥٥١
المبحث الرابع: أبرز التهم التي ألصقت بالعلماء لصد الناس عن الاستفادة منهم ٥٥٧
١- اتهام العلماء بمداهنة الحكام والتزلف لهم وذلك لأغراض شخصية ومصالح دنيوية: ٥٥٨
٢- اتهام العلماء بموالاة أهل البدع وعدم الإنكار عليهم ٥٦٧
٣- اتهام العلماء بالجهل بالواقع: ٥٦٩
المبحث الخامس: أهمية حماية أعراض العلماء والحرص على استمرارهم في موضع القدوة: ٥٧٣
الخاتمة: ٥٧٦
ثبت المراجع: ٥٧٨
فهرس الموضوعات: ٥٨٠